كلماتٌ

فرّت عن أصحابها

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتــــاب: كلماتٌ فرَّجت عن أصحابها

تـأليـــــــف: أسماء سليمان

القـطـــــع: 20*14

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح

سنـة النشـر: 2024

النــاشـــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 33831 / 2024

الترقيم الدولي (ISBN): 4 - 595 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

9 789778 445954

كلمـــاتٌ

فرَّجت عن أصحابها

بقلم

أسماء سليمان

مقدمة

الحمد لله بما حمد به نفسه في كتابه:

{الحَمدُ لِلَّه رَبِّ العَالَمِين}

القائل سبحانه في مُحكم التنزيل: {الرَّحمَن * عَلَّمَ القُرآن * خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَان}

الرحمن ... الآيات ١:٤

والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبعد..

لا شك أن للكلمة قوة لا يُستهان بها، كيف لا وقد تعجب الصحابي الجليل "معاذ بن جبل" حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أكثر ما يُدخل الناس النار اللسان والفرج".

فقال معاذ: " أو إنا لمؤاخذون بما نتكلم يا رسول الله؟

فقال النبي: ثكلتك أمك يا معاذ!، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم!

والعجب كل العجب لمن يستهين بالكلمة وقد بلغ من أمرها ما بلغ، إنها لتُؤرق مضجعًا، وتُعكر مزاجًا، وتُبدل حالًا، وتُريق دمعًا، وتُوحش أنسًا، وتُميت شعورًا، وتُورث ضغينةً، وتُفزع سكينة، وتأتي بما قد لا تقدر عليه حوادث الأيام وخطوب الزمان على المجيء بمثله. فالإنسان أضعف مما يُتوقع؛ فكلمة واحدة قد تجعل منه بطلًا، وأخرى قد تجعله دفينًا في غياهب روحه.

وقد قدّم أحدهم عملًا هدمته كلمة، فعبر عن حسرته بقوله: "ثم تأتي كلمة لتطيح بكل الكلمات".

فالكلمة لها وزنها، وكان العرب يحسبون لها ألف حساب، فالكلمات إما أن تكون نورًا، وإما أن تكون نارًا، ربما تكون بلسمًا تهتز به الحناجر فتداوي جرحًا، وربما تكون علقمًا كطعن الخناجر فتقتل سامعها.

وبين طيات هذه الأسطر نسافر عبر الكلمات لنرى العَجب العُجاب لأثرها وقوتها في دفع البلايا، أو لجلب العطايا، سائلين الله الإخلاص في القول والعمل، وأن يتقبل منا هذه الكلمات بقبول حسن إنه ولي ذلك والقادر عليه.

*****

سحر الكلمة

ذهب أحدهم إلى القاضي يشتكي مظلمةً، فلما قصها عليه قال له القاضي:

- اكتب كتابًا بشكواك هذه كي أدقق الأمر.

فخرج الرجل يبحث عن أحدٍ يكتب له إذ أنه لا يستطيع أن يكتب، فدلَّه البعض على شابٍّ يُحسن الكتابة، فذهب إليه، فلما آتاه قال له الشاب:

- اِحكِ لي مظلمتك وسأصوغها بطريقتي.

فأخذ الرجل يحكي ويشرح مظلمته حتى انتهى، فلما فرغ قال له الشاب:

- سأقرأ عليك ما كتبت كي ترى إن أردت أن نُعدِّل شيئًا.

فقرأ الشاب حتى أتم القراءة، ثم التفت إلى الرجل فوجد عينيه تذرفان قائلًا يعقب باندهاش وتأثر:

- هذا أنااا؟!!

لمحة

أحيانًا قد تفاجئك عبارة دقيقة تختصر شعورك وما يجول في خاطرك، لتقف عندها ترددها باندهاش إذ لامست أعماقك متحيرًا، تتساءل: كيف أتى بها؟ كيف صوَّر لك أحدهم حالك حتى أنك لتتعاطف مع نفسك؟!

انظر مع من تتكلم

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلًا فيمن كان قبلنا قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم أراد أن يتوب فدلّه الناس على عابد فذهب إليه وقال:

- إني قد قتلتُ تسعة وتسعين نفسًا فهل لي من توبة؟!

فقال العابد:

- لاااا، ليس لك توبة.

فأكمل به المائة!

لكن أمر التوبة كان مُلحًا له في نفسه، نابعًا من داخله، فسأل الناس فدلوه على عالم، فلما ذهب إليه قال له:

- إني قد قتلت مائة نفسًا، فهل لي من توبة؟!

فقال له العالِم:

- نعم، ومن ذا الذي يحجب عنك التوبة، ولكن اخرج أولًا من الأرض التي أنت بها فإنها أرض سوء، واذهب إلى أرض كذا فإن بها عبادًا صالحين فتعبّد معهم.

وخرج الرجل في طريقه ممتثلًا لأمر العالم، وبينما هو في الطريق قبضه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، تقول الأولى:

- يا رب إنه قد جاءك تائبًا.

وتقول الثانية:

- يا رب إنه لم يبلغ الأرض التي سيذهب إليها ولم يتعبد مع أهلها.

فأرسل الله ملكًا يقيس المسافة بين المكان الذي قُبض فيه وبين الأرض التي خرج منها، وبينه وبين الأرض التي سيذهب إليها، وحسب الأرض التي هو أقرب منها سيحدد مَن منهما سيأخذه، ثم أمر الله الأرض السيئة أن تباعدي، والأرض الصالحة أن اقتربي، فكان أقرب للثانية ففازت به ملائكة الرحمة.

فـــائدة

لطالما يُذكرني هذا الحديث بقول الله تعالى:

{ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم }

فقد قَبِل الله توبة هذا الرجل حتى وإن لم يعمل عملًا واحدًا صالحًا لكن الله عامله بصدق نيته في التوبة النصوح.

ولكن المُلفت في الأمر أن هناك فرقًا بين العالِم والعابد، فالأول لديه من العلم الأصيل ما يجعله أهلًا للفتوى والسؤال، أما الثاني فعلمه يقتصر على كيفية أداء العبادات ليس إلا، فهو غير مؤهل للفتوى والقضاء بين الناس، وليس اللوم على من دل الرجل على عابد، ولا على الرجل لأنه لا يعرف الفرق بين هذا وذاك، فما هو سوى تائه قد ضل الطريق ويبحث أخيرًا عن طوق نجاة، وإنما اللوم كل اللوم على غباء رد العابد، فأنت أمام رجل يخبرك بأنه قد قتل تسعة وتسعين نفسًا ناهيك عن المعاصي الأخرى التي ارتكبها،

فليس لديه أدنى مشكلة أن يُكمل بك المائة، فقط كان يكفيك أن تقل له:

" لا أدري، أو أمهلني حتى أسأل لك من هو أعلم مني، أو اسأل غيري".

لكن أن تغلق الباب في وجهه هكذا، فمن المتوقع أن يكون هذا هو التصرف الطبيعي من شخص مثله!

عزيزي بيدك أنت التحكم في رد فعل الآخرين من خلال كلماتك، فبكلمة منك قد تثير من أمامك فيضرب ويبطش، وبكلمة أخرى قد تجعله يهدأ ويستعيد توازنه، والأمر لك لا يحتاج إلى كثير من العلم، ولكن إلى قليل من الذكاء.

وتحسبونه هينًا وهو عند اللّه عظيم

قال الإمام " إبراهيم النخعي " رحمه الله:

" إني لأرى الشيء مما يُعاب، ما يمنعني من غيبته إلا مخافة أن أُبتلى به ".

عبرة

كثيرًا ما نرى من الأحداث، والآراء، والأشياء ما لا نرضى بها أو ما قد يتعارض مع قناعاتٍ عندنا؛ فتدفعنا تلك القناعات لانتقاد مالا يرضينا، وليست المشكلة في فكرة الانتقاد بحد ذاتها؛ إذ لا بأس بالانتقاد البنّاء المنضبط بالأخلاق، المحفوف بالأدب، ولكن المشكلة تكمن في كيفية الانتقاد حين يتحول من انتقاد موجه للرأي إلى معايرة وتنمر على صاحب الرأي .

هذا الأمر ليس بالجديد، لكنه تعدى الحدود لينال القاصي والداني ولا مجال لامتثال الأدب أو مراعاة المقامات، فمن قريب طالعتنا مباراة لكرة القدم بين فريقين كبيرين ينتميان لنفس الدولة، وقد حصد أحدهما الفوز بالكأس وانتهى الأمر بينهما، لكن تراشقات الجماهير بقيت في المنتصف، فلما كتب أحد المشاهير تعليقًا بأن الفرحة عامة؛ حيث أن كلا الفريقين ينتميان للدولة نفسها، ومن

حق الجمهور المشجع للفريق صاحب اللقب أن يفرح لفوز فريقه دون تعصب أو حكر للفرحة رأيتُ تعليقاتٍ تنمرية ساخرة تسخر من شكل الرجل وخِلقته، بل وتطاول بعضهم ليهزأ بمظهر أسنانه ولم يتعرضوا لانتقاد رأيه لأنك لو نظرت جيدًا لوجدت أن كلامه منطقي لا مجال فيه للسخرية أو النقد، فلكي يُخرسوه حولوا النقد لشخصه لا لرأيه!

وقس على ذلك الكثير من الأمثلة الواقعية المريرة، فقد أفصح أحدهم عن رأيه في أمر ما، فسخر منه أحد الحضور:

" مبقاش غير رأيك أنت يا ابو أربع عيون " كونه يرتدي نظارة!

والأقسى من ذلك حين يكون الرأي متعلقًا بالدين، فهو لا يجرؤ على السخرية منه أو توجيه الانتقاد له لأنه لن يسلم فيتحول لانتقاد الشخص والتنقص منه، أذكر أن شابًا عاديًا يصلي ويصوم، ويجتنب النواهي ويفعل من الطاعات قدر استطاعته، سمع هذا الشاب حديثًا عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه **"ما كان يُصافح النساء "**، وأنه عليه الصلاة والسلام " **نهى عن مصافحة النساء**

من غير المحارم "، فامتنع من حينها عن مصافحة كل امرأة لا تحل له، حتى من كان يعتبرهن كأخواته من أبناء عمومته وخالاته وأخواله اللاتي تربى معهن من صغره، هو ليس شيخًا ولا داعية ولكنه مسلمًا يحاول أن يطبق تعاليم دينه التى فرضها الله على الجميع دون تمييز ولا مُحابة، لكن البعض ممن رأوا فيه أن هذا تشددًا منه فأخبرهم بحديث النبي صلى الله عليه وسلم، فما كان من أحدهم إلا أن انتقده بسخرية:

- " خلاص عملتلنا فيها عم شيخ ... يعني طبقت كل حاجة في الدين ومبقاش غير دي ... ولا سلامك عليها هيقل من بركتك يا مولانا ... ولا يكونش هتاكل منك حتة! "

لاحظ أن كل الانتقادات موجهة لشخصه لا للرأي أو المعتقد الذي يتبناه أو يطبقه، وهنا لديَّ سؤال مُلِح:

بالله عليك أسألك لو أن هذا الشخص لا يُصافح لمرض جلدي مُعدٍ أصابه، ويُخبر كل امرأة وكل شخص يمد يده للمصافحة بحالته المرضية هذه، فيعتذر منه عن المصافحة لهذا السبب كي لا يتسبب في انتقال العدوة لهم، كم سيشعرون من الامتنان له لأنه

كفَّ أذى مرضه عنهم وأخبرهم بحقيقة مرضه وقد كان في إمكانه ألا يكسف يدهم الممتدة فيصافح دون أن يهتم لهم، ولن يعلموا بأنه المتسبب في انتقال العدوة لهم، فكم من شخص يُصافحون كل يوم؟!

لكن الملحوظ من معظم الناس هو انتقاد الفكر الديني القائم على مبدأ قال الله وقال الرسول، وأخشى أن نكون بهذا التفكير فينطبق علينا قول الله تعالى:

{وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالأخرة وإذا ذُكر اللذين من دونه إذا هم يستبشرون}

الخلاصة

إن الانتقاد البنَّاء الذي يسهم في الوصول لأحسن الأحوال مطلوب دون التعرض للأشخاص بالسخرية والاستهزاء، فانتقد الرأي، ولا تُسفه الأشخاص وتُقلل منهم، ولنا في قول الإمام " إبراهيم النخعي " تدبر ووقفة، وفي قصة "ابن سيرين" عِظة وعبرة حين قيل له عندما خسر ثروته في التجارة:

- خسارتك عظيمة يا ابن سيرين!

قال:

هذا ذنب أنتظر عقوبته منذ أربعين سنة!

فسألوه:

- وما هو؟

قال:

- عيّرتُ رجلاً وقلت له يا فقير!

ويحك كيف هذا!!

ذات صباح باكر أمر الحجاج أحد حراسه أن يأتيه بأحدهم من بيته، فجاء الرجل بملابس مبعثرة يرتعد خوفًا لا يدري لما هو مطلوب في هذا التوقيت بين يديه، فلما دخل عليه وقد أمر الحارس بالخروج سأله الحجاج:

- كيف أصبحت؟!!

فلما انتبه لسؤاله، وأيقن أن الحجاج ما أرسل إليه في هذا الوقت بهذه السرعة إلا لأنه يشعر بالفراغ ولا يريد النوم أجاب بما قد يبرجل الحجاج ولا يريحه:

- أصبحتُ لا كما يريد الله، ولا كما يريد الشيطان، ولا كما أريد!

فاندهش الحجاج قائلًا:

- ويحك كيف هذا؟!

فقال الرجل:

- يريدني الله عابدًا زاهدًا ولستُ كذلك، ويريدني الشيطان فاسقًا مارقًا ولستُ كذلك، وأريد أن أخلى في بيتي ولم تتركني يا حجاج!

فضحك الحجاج وقد نال رده إعجابه وقال:

- أدبٌ عراقي، وخُلقٌ شامي، وإخواننا حين كنا في الطائف ... عُد إلى بيتك.

فائدة

بخلاف معرفة الطبائع البشرية، وبغض النظر عن شخصية من أمامك يبقى الرد المثير وغير المتوقع محل إعجاب سامعيه حتى وإن كان يحمل في طياته عتابًا أو استياءً بشرط أن يكون حياديًا ينتقد الفعل لا الشخصية.

الأمـــــــــــان

قالت عائشة رضي الله عنها وهي تقص على النبي عليه الصلاة والسلام حكاية إحدى عشرة امرأة تعاهدن وتعاقدن ألا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً :

قالت الأولى: " زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى".

قالت الثانية: " زوجي لا أبث خبره، إني أخاف ألا أذره، إن أذكره أذكر عجره وبجره".

قالت الثالثة: " زوجي العشنق، إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق".

قالت الرابعة: "زوجي كليل تهامة، لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سآمة".

قالت الخامسة: " زوجي إذا دخل فَهِد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد".

قالت السادسة: " زوجي إذا أكل لف، وإذا شرب اشتف، وإذا اضطجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البث".

قالت السابعة: " زوجي عيايا، غيايا، طباقا، كل داء له داء، شجك، أو فلك، أو جمع كلاً لك".

قالت الثامنة: " زوجي المس مس أرنب، والريح ريح زرنب".

قالت التاسعة: " زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد".

قالت العاشرة: " زوجي مالك، وما مالك! مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك".

قالت الحادية عشرة: " زوجي أبو زرع فما أبو زرع؟ أناس من حلي أذني، وملأ من شحم عضدي، وبجحني فبجحت إلى نفسي، وجدني في أهل غنيمة بشق، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومنق، فعنده أقول فلا أقبح، وأرقد فأتصبح، وأشرب فأتقنح. أم أبي زرع فما أم أبي زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح. ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كمسل شطبة، ويشبعه ذراع الجفرة،

بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها، وغيظ جارتها. جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثا، ولا تنقث ميرتنا تنقيثا، ولا تملأ بيتنا تعشيشا. قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تمخض، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين، فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلا سريا، ركب شريا، وأخذ خطيا، وأراح علي نعما ثريا، وأعطاني من كل رائحة زوجا وقال: كلي أم زرع وميري أهلك. قالت: فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع".

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة – رضي الله عنها -:

- كنت لك كأبي زرع لأم زرع.

وفي زيادة وردت عند الإمام النسائي (ولكني لا أطلقك)

لافتة

في استبيانٍ أجراه قاضٍ شرعي في بلد عربي مسلم على مائتي أسرة بعضها تزوج ما بين عام ١٩٦٣م إلى ١٩٩٠م، فُصل فيه الرجال عن زوجاتهن، كل منهما في مكان منفصل، ووزع على كل امرأة منهن ورقة تتصدر السؤال الرئيس التالي:

- ماذا تريد المرأة من زوجها؟

ويتفرع منه أربعة أسئلة فرعية وهي كالتالي:

- ما أول شيء تريده المرأة من زوجها؟

-ما ثاني شيء تريده المرأة من زوجها؟

-ما ثالث شيء تريده المرأة من زوجها؟

-ما آخر شيء تريده المرأة من زوجها (لاحظ لم يقل ما رابع شيء، بل يريد أخر شيء من الممكن أن تطالب به زوجها) ؟

وبالمقابل وزع على الرجال نفس الورقة تتصدر السؤال الرئيس التالي:

-ماذا يريد الرجل من زوجته؟

ومنه تتفرع نفس الأسئلة الأربعة الفرعية السابقة.

وتضمن الاستبيان ثلاث عشرة اختيارًا للإجابة عن الأسئلة المطروحة، وكانت هذه الاختيارات كالتالي:

(توفير الطعام – توفير المال – الشعور بالأمن – الاحترام المتبادل – الثقة المتبادلة – الكلام الجميل – الفكاهة والمرح – الرقة والدلال – التسامح والعفو – تحمل المسئولية – تبادل الأحاديث – الاهتمام بالبيت – العاطفة وإخراج المشاعر).

وبعد فحص الأوراق وعمل المعادلات الإحصائية كانت إجابات النساء كالتالي:

- ٩٥٪ من النساء كتبن أن أول ما يردنه من أزواجهن "تحمل المسئولـــية ".
- ٨٥٪ من النساء كتبن أن ثاني شيء يردنه من أزواجهن "الشعور بالأمــن".

- ٦٥٪ من النساء كتبن أن ثالث شيء يردنه من أزواجهن "الاحترام المتبادل ".
- ٥٪ من النساء كتبن أن آخر شيء يردنه من أزواجهن "توفير الطعـــــام ".
- بينما كانت إجابات الرجال كالتالي:
- ٩٥٪ من الرجال كتبوا أن أول ما يريدونه من زوجاتهن "الاهتمام بالبيت"
- ٨٠٪ من الرجال كتبوا أن ثاني شيء يريدونه من زوجاتهن "العاطفة واخراج المشاعر ".
- ٧٥٪ من الرجال كتبوا أن ثالث شيء يريدونه من زوجاتهن " الاحترام المتبادل ".
- ٨٪ من الرجال كتبوا أن آخر شيء يريدونه من زوجاتهن "توفير المال "

وليس المقصود به أن تدخر وتحافظ على مال زوجها؛ وإنما يريد منها زوجها أن تساعد معه بالمال.

الشاهد من هذا الاستبيان الذي سوقته كاملًا عن قصدٍ بهدف الانتفاع به بصفة عامة هو أن (٨٥ %) من النساء يريدن من أزواجهن الشعور بالأمن، ولو دققت النظر لوجدت أن تحمل المسئولية التي جاءت في المرتبة الأولى بنسبة (٩٥ %) لا ينفك عنها بقية ما تحتاجه النساء؛ إذ أن تحمل المسئولية هي القاعدة العريضة التي ينحدر منها كل ما تريده المرأة من الرجل، فأنت مسئول عن سعادتها ونفسيتها وتحقيق رغباتها قدر وسعك، ومن ضمن المسئوليات التي تتوجب عليك تجاهها بل وأهمها أن تُشعرها بالأمن، وهذا هو المغزى من حديث السيدة عائشة السالف ذكره، وقد فهم النبي هذا المغزى وطمأنها بقوله: كنتُ لكِ كأبي زرع لأم زرع غير أني لا اطلقكِ.

كيف حال العُقدة؟!

كانت السيدة عائشة رغم علمها بأنها أحب نساء النبي صلى الله عليه وسلم إليه وذلك بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، فحين سأله "عمرو بن العاص" ذات مرة في مجلس وهو بين أصحابه:

- من أحب الناس إليك يا رسول الله؟

فقال عليه الصلاة والسلام:

- عائشة.

فقال عمرو:

- مِنْ الرجال يا رسول الله؟

فقال:

- أبوها.

إلا أن السيدة " عائشة " كانت تحب أن تطمئن على مكانتها في قلبه، فكانت تقول للنبي صلى الله عليه وسلم:

- كيف حبك لي؟!

فكان يقول لها صلى الله عليه وسلم:

- كعقدة الحبل.

ومن بعدها من حين إلى حين كانت تقول له:

- كيف حال العُقدة؟

فيبتسم عليه الصلاة والسلام ويقول:

- هي كحالها.

ومضة

من المُسّلم به أن الله قد جعل للرجال خصائص تختلف عن خصائص النساء، ومن أهم تلك الخصائص وهي السمة العامة للرجال " قلة الكلام "، فالرجال لا يحبون كثرة الكلام ولا الخوض في التفاصيل بخلاف النساء وقد بدا هذا الأمر واضحًا في حديث "أم زرع" الذي ساقته السيدة " عائشة " بكل تفاصيله لإحدى عشرة امرأة كل منهن تصف زوجها، أما النبي صلى الله عليه وسلم فعلق فقط بجملة واحدة في نهاية الحديث " كنتُ لكِ كأبي زرع لأم زرع غير أني لن أُطلقكِ "، وبالرغم من أن ٨٠ % من الرجال كتبوا في الاستبيان السابق ذكره أن ثاني شيء يريدونه من زوجاتهن " العاطفة واخراج المشاعر " إلا أنه لا بد للنساء من أن يفهمن أن طبيعة الرجل تختلف عن طبيعتها كأنثى، ولا يلعبن بالمقابل على هذا الوتر طوال الوقت بالسؤال عن مشاعر زوجها تجاهها كما يحب هو أن تبوح بمشاعرها تجاهه، بل ليكن بينهما " عُقدة " كتلك الشفرة التي كانت بين النبي وزوجته " عائشة. "

ألم يكفيك فضلنا؟!

خرجت " زُبيدة " زوجة " هارون الرشيد " في موكبٍ لها، فاصطفَّ الناس والعوام والبُسطاء ينظرون، فسمعت أحدهم يقول:

- اللهم إني أسألك من فضل زُبيدة.

وسمعت الأخر بجواره يقول:

- اللهم إني أسألك من فضلك.

فأرسلت " زُبيدة " خادمًا لها يعطي الأول دجاجة مطهوة، ويعطي الثاني دينارين، واستمرت على هذا الحال من العطاء مدة عشرة أيام، ثم أرسلت بعدها للأول الذي كانت ترسل له بالدجاجة تسأله:

- ألم يكفِك فضلنا؟!

فأجابها باندهاش:

- عفوًا سيدتي، ولكن عن أي فضلٍ تتحدثين؟!

فقالت:

- المئة دينار، ألم يك يصلك يوميًا دجاجة مطهوة وبداخلها عشرة دنانير منذ عشرة أيام؟!

فقال الرجل:

- نعم كانت تصلني الدجاجة، لكني كنت أرغب بالمال، فلم أُفتش عما بداخلها، فما إن يُولي الخادم حتى استبدلها مع صاحبي بالدينارين!!

فتفاجأت " زبيدة " وتذكرت الفارق بين دعوة هذا الرجل وبين دعوة صاحبه، ثم ابتسمت بخجل وقد شعرت بضآلة حجمها أمام فضل الله فتمتمت:

- وما بلغ فضلنا سوى دينارين.

لطيفة

يقول الله تعالى:

{ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه }

ولتتخيل معي قدر فضل الله وعظمته لابد لنا من وقفة تأملية أمام هذا الحديث الرائع الذي يروي لنا فيه النبي صلى الله عليه وسلم عن آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة، فعن عَبد اللهِ بن مَسعُودٍ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

آخِرُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ رَجُلٌ، فهو يَمشي مَرَّةً، ويَكبُو مَرَّةً، وتَسفَعُه النَّارُ مَرَّةً، فإذا ما جاوزها التَفَتَ إليها، فقال:

- تباركَ الَّذي نَجَّاني مِنكِ، لَقَد أعطاني اللهُ شيئًا ما أعطاه أحَدًا مِنَ الأوَّلينَ والآخِرينَ، فتُرفَعُ لَه شَجَرةٌ، فيَقُولُ:

- يا رَبِّ، أدنِني مِن هذه الشَّجَرةِ فلأستَظِلَّ بَظِلِّها، وأشرَب مِن مائِها، فيَقُولُ الله عَزَّ وجَلَّ:

- يا ابنَ آدَم لَعَلِّي إنْ أَعطيتُكَها سَألتَني غيرَها؟ فيَقُولُ:

- لا، يا رَبِّ ويُعاهدُه أن لا يَسألَه غيرَها، قال:

- ورَبُّه عَزَّ وجَلَّ يَعذِرُه؛ لِأنَّه يَرى ما لا صَبْرَ لَه عليه، فيُدْنيه مِنها، فيَستَظِلُّ بَظِلِّها، ويَشرَبُ مِن مائِها، ثُمَّ تُرفَعُ لَه شَجَرةٌ هي أحسَنُ مِنَ الأُولى، فيَقُولُ:

- أيْ رَبِّ، أدنِني مِنَ الشَّجَرةِ لِأشرَبَ مِن مائِها وأستَظِلَّ بَظِلِّها، لا أسألُكَ غيرَها، فيَقُولُ:

- يا ابنَ آدَم، ألَم تُعاهِدْني أن لا تَسألَني غيرَها؟ فيَقُولُ:

- لَعَلِّي إنْ أدنيتُكَ مِنها تَسألُني غيرَها؟ فيُعاهدُه أن لا يَسألَه غيرَها، ورَبُّه تعالى يَعذِرُه؛ لِأنَّه يَرى ما لا صَبْرَ لَه عليه، فيُدْنيه مِنها، فيَستَظِلُّ بَظِلِّها، ويَشرَبُ مِن مائِها، ثُمَّ تُرفَعُ لَه شَجَرةٌ عِندَ باب الجَنَّةِ، وهي أحسَنُ مِنَ الأُولَيينِ، فيَقُولُ:

- أيْ رَبِّ أدنِني مِن هذه لِأستَظِلَّ بَظِلِّها، وأشرَبَ مِن مائِها، لا أسألُكَ غيرَها، فيَقُولُ:

- يا ابنَ آدَم، ألَم تُعاهِدْني أن لا تَسألَني غيرَها؟ قال:

- بلى، يا رَبِّ لا أسألُكَ غيرَها، ورَبُّه عَزَّ وجَلَّ يَعذِرُه؛ لِأنَّه يَرى ما لا صَبْرَ لَه عليه، فيُدْنيه مِنها، فإذا أدناه مِنها سَمِعَ أصَواتَ أهلِ الجَنَّةِ، فيَقُولُ:

- أي رَبِّ أدخِلْنيها، فيَقُولُ: يا ابنَ آدَم، ما يَصْريني مِنكَ، أيُرضِيكَ أن أُعطيَكَ الدُّنيا ومِثلَها مَعَها؟ قال:

- يا رَبِّ، أتَستَهزِئُ مِني وأنتَ رَبُّ العالَمينَ؟

فضَحِكَ ابنُ مَسعُودٍ، فقال:

- ألَا تَسألُوني مِمَّ أضحَكُ؟ فقالُوا:

- مِمَّ تَضْحَكُ؟ قال:

- هَكَذا ضَحِكَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالُوا:

- مِمَّ تَضْحَكُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ فقال:

- مِن ضَحِكِ رَبِّ العالَمينِ، حينَ قال:

- أتَستَهزِئُ مِني وأنتَ رَبُّ العالَمينَ؟ فيَقُولُ:

- إنِّي لا أستَهزِئُ مِنكَ، ولَكِنِّي على ما أشاءُ قادِرٌ .

وفي رواية لمسلم عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟

-قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ:

-ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ:

-أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ:

-أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ:

-رَضِيتُ يا رَبِّ، فَيَقُولُ:

-لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ:

-رَضِيتُ يا رَبِّ، فَيَقُولُ:

-هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ:

-رَضِيتُ يا رَبِّ.

قَالَ موسى:

-رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟

قَالَ:

-أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ " قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}

فماذا يكون فضل العبد مهما بلغ إلى جانب فضل الله، لذلك يقول الله وهو أكرم الأكرمين آمرًا عباده:

{ واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيءٍ عليمًا }.

يأتيني بها الله

لطالما كان " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه يتمنى الشهادة في سبيل الله، ويبحث عنها في كل معركة يدخلها، حتى أنه ذات مرة سمعته ابنته " حفصة " رضي الله عنها وهو يقول:

-اللهم إني أسألك الشهادة في سبيلك في بلد رسولك.

فتعجبت السيدة " حفصة " من دعوته، لا لكونه يسأل الله الشهادة، ولكن لكونه يطلبها في بلد رسول الله - أي المدينة – والأسباب في ذلك التعجب كثيرة أولها أنه قد أصدر قرارًا بمنع العجم من سُكنى المدينة، ثانيها أن " عمر " رضي الله عنه عُرف عنه العدل، ومن شدة عدله كان ينام بين الناس من دون حراسة ولا يستطيع أحد أن يتعرض له لأنه لا يظلم أحدًا، ويبدو ذلك جليًا في قصة رسول كسرى الذي أتى إلى المدينة لمقابلة " عمر " رضي الله عنه، فأخذ يبحث عن قصر الخلافة وهو في شوق إلى رؤية ذلك

الرجل الذي اهتزت خوفًا منه عروش كسرى وقيصر، ولكنه لم يجد في المدينة قصرًا ولا حراسة، فسأل الناس:

-أين أمير المؤمنين عمر؟

فأشار بعضهم نحو شجرة وقالوا:

-لعله ذاك النائم تحتها.

فلم يصدق الرجل نفسه حين أكدوا له بأنه هو ذلك النائم وقد افترش الأرض، والتحف السماء، وعليه بردة قديمة مُرقعة، فوقف مشدوهًا وقال قولته المشهورة:

-حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فنمتَ يا عمر.

إذن فلن تتأتى له الشهادة أمام كل هذه الأسباب المانعة لحدوثها في المدينة إلا إذا كانت حربًا خارجية، لكن " عمر " رضي الله عنه لم يهتم لذلك كله، فقال بما يُوحي بأن كل هذه الأسباب الأرضية لا تُشغل عقله؛ إذ أنه يتعامل ويلجأ إلى رب هذه الأسباب وهو القادر المدبر سبحانه، فقال لها بكل يقين:

-يأتيني بها الله.

ويمر الوقت، ويكتب الصحابي " المغيرة بن شُعبة " إلى " عمر " رضي الله عنه كتابًا يقول فيه:

أن عندي غلامًا نجارًا نقاشًا حدادًا، فيه منافع لأهل المدينة، فإن رأيت أن تأذن لي أن أرسل به فعلت.

وكان "عمر" رضي الله عنه رافضًا في بادئ الأمر، ولكن بعد محاولات لإقناعه وافق على دخول هذا الغلام من العجم إلى المدينة، وكان يُدعى " فيروز النهاوندي " أو ما يُعرف بـ " أبي لؤلؤة" نسبة إلى ابنته، وكان مجوسيًا في أصله – أي يعبد النار ويسجد لها– فلبث في المدينة ما شاء الله، وذات مرة قال له " عمر":

-يا فيروز سمعتُ أنك تصنع الرحى " وهي أداة لطحن الحبوب قديمًا. "

فقال فيروز:

-لأصنعن لك رحى يتحث بها الناس.

ثم مضى " فيروز " وقد فهم " عمر " مغزى كلامه، فقال:

-توعدنيَّ العبد .

وكان " فيروز " يحمل في قلبه حقدًا قد بلغ مبلغه على " عمر " رضي الله عنه؛ إذ أنه ساوى بإمبراطرية كسرى زعيمة المجوسية بالأرض وقهرها، لكن " عمر " ما كان ليعاقب أحدًا من دون دليل واضح أو جُرم يقترفه، فلم يتخذ ضده أي إجراء. وفي فجر يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر ذي الحجة لسنة ثلاثة وعشرين من الهجرة، الموافق لستمائة أربعة وأربعين من الميلاد كان " عمر " رضي الله عنه يؤوم المسلمين في الصلاة فطعنه الخبيث " فيروز " بخنجر مسموم حتى إن لم يمت بالطعن مات بالسم الساري في دمه، ونال " عمر " الشهادة في بلد رسول الله كما كان يدعو الله بذلك، وقد كان يقينه رغم استحالة الأسباب:

_يأتيني بها الله .... وقد كان.

تذكرة

لا يمكن أن تمر هذه القصة دون أن يُذكر معها موقفي النبي " زكريا" عليه السلام، والسيدة " مريم " العذراء، فتخيل معي هذا المشهد للنبي " زكريا " والذي خلده الله في صدر سورة " مريم "، قال تعالى : {كٓهيعٓصٓ ۞ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۞ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۞ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۞ يرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۞}

يدخل " زكريا " محرابه وهو رجل كبير مُسن، تجاوز عمره المائة عام، وقد احدودب ظهره، ورق عظمه، وشاب رأسه، وربما اقتربت منيته، وزوجته قد كبُر سنها وأصبحت عجوزًا وكذلك عاقرًا لا تُنجب أصلًا، فهي حتى وإن كانت صغيرة السن إلا أن مانع الإنجاب

موجود في أصله، لكن " زكريا " لم يفقد الأمل رغم استحالة الأسباب، وتأمل معي قول الله تعالى عنه حين دخل محرابه: "إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا "

هل تأملت معي لماذا كانت مناجاته ودعاءه لربه بصوت خافت كأنه يخشى أن يسمعه من حوله أو من يفاجئه بالدخول عليه؟

ذلك لأن طبيعة دعاءه في هذا السن غريبة، فرجلٌ مثله في هذا الحال بدلًا من أن يدعو :

-ربِّ أحسن لي خاتمتي، أصلح لي فيما تبقي من عمري، وفقني لعمل صالح قبل مماتي.

يدعو الله بأن يرزقه ولدًا في مثل هذا السن!

لذلك كان النداء خفيًا، ومن المفارقات العجيبة في قصة النبي "زكريا" عليه السلام يقينه العميق بالله وبإجابة دعاءه رغم استحالة الأسباب من جهة، وعدم تصديقه بأن الله قد استجاب دعاءه حين فاجئه بذلك من جهة أخرى.

قال تعالى:

﴿ يا زكريا إنا نُبشرُك بغلامٍ اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًا ۞ قال ربِّ أنَّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرًا وقد بلغت من الكِبر عتيًا ۞ قال كذلك قال ربك هو عليَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا ۞ ﴾

وفي قصة العذراء السيدة " مريم " فاجئها الملك في صورة بشر يُبشرها بغلام لها اسمه " عيسى ابن مريم "، فما كان منها وهي العفيفة الطاهرة التي لم يمسسها بشر قط إلا أن قالت:

﴿قالت أنَّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيًا ۞ قال كذلك قال ربك هو عليَّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرًا مقضيًا﴾

وإذا توقفنا عند كلمة السر في هذا وذاك لوجدته في قوله:

﴿كذلك قال ربك هو عليَّ هين﴾

وبالعودة إلى قصة أخر رجل يخرج من النار ويدخل إلى الجنة حين وجدها امتلأت، وأخذ أصحابها أماكنهم حتى ظن أنه ليس له مكان بينهم، قال الله له:

- أيُرضِيكَ أن أُعطيَكَ الدُّنيا ومِثلَها مَعَها؟ قال:

- يا رَبِّ، أتَستَهزِئُ مِني وأنتَ رَبُّ العالَمينَ؟

فضَحِكِ رَبِّ العالَمينِ، حينَ قال:

- أتَستَهزِئُ مِني وأنتَ رَبُّ العالَمينَ؟ فيَقُولُ الله:

- إنِّي لا أستَهزِئُ مِنكَ، ولَكِنِّي على ما أشاءُ قادِرٌ.

فاعلم أن حاجتك عند الله هي عدم العدم؛ فلا تستعظم شيئًا أمام قدرة الله وعظمة ملكه.

أذكرُ أن إحداهن قد أُعجبت بشابٍ، وعرفت بعد ذلك مع مرور الوقت أنه ذو شأن عال، رفيع المستوى، مركزه مرموق، فكانت كلما حاول اليأس أن يتسلل إلى قلبها من أن يكون زوجًا لها في يوم من الأيام وهي لم تكن لتضاهيه في مكانته، ولا خُلطة بينهما بحسب طبيعة عملها البعيد عنه كل البعد كانت تقول لنفسها:

-وماذا يكون هذا الشخص؟ أليس بشريًا؟ وسيتزوج بشرية مثله؟ ربما تكون هذه البشرية س أو ص أو ع أو ل أو فلانة بنت فلان " تعني نفسها!

وبترتيب القدر البحت قد كان..

وختامًا في قصة " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه تذكر أن الله أمرك بما يجب أن تقوم به فقال سبحانه:

"وقال ربكم ادعوني. "

وماذا تكون النتيجة؟:

"استجب لكم. "

فالأولى مهمتُك، والثانية لا دخل لك فيها، فلا تسأل " أنَّى ذلك "، ولكن قل بيقين كما قالها " عمر " رضي الله عنه:

" يأتيني بها الله. "

يأباه القلب ويُذعن به اللسان

روي أن " هند بنت أمية " المعروفة بالسيدة " أم سلمة " رضي الله عنها كانت تحب زوجها " ابو سلمة " حبًا عظيمًا، وكان هو أيضًا يبادلها هذا الحب حتى أنه حين حضرته الوفاة وهو يحتضر قال لها:

- تعاهديني إن أنا متُ تزوجي بعدي.

ثم رفع يديه يدعو الله قائلًا:

- اللهم ارزق أم سلمة بعدي بزوجٍ لا يُحزنها ولا يُؤذيها.

فتعجبت " أم سلمة " واستنكرت أن يدعو بهكذا دعاء وكأنها استشعرت حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

" المرأة لأخر أزواجها "، وبلسان الحال تقول:

- كيف أكون لأحدٍ غيرك يا أبا سلمة، هلَّ دعوتَ الله أن يجمعني بك في الجنة، أن أكون زوجتك في الآخرة!

ومات أبو سلمة، وحزنت عليه أم سلمة حزنًا شديدًا لفراقه، لكن هذا الحزن لم يجعلها تتسخط على قضاء الله وقدره، بل امتثلت لأمر النبي حين علَّم المسلمين دعاءً يرددونه عند حلول المصائب:

" اللَّهُمَ أَجِرنِي فِي مُصِيَبتِي وَاخلُفنِي خَيرًا مِنهَا "

فرددته وقلبها يعتصر ألمًا يقول:

- ومَن خير من أبي سلمة؟!!

ثم ما لبثت أن انتهت عدتها فتقدَّم لها سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم لخطبتها، وتزوجته وأبدلها الله خيرًا من أبي سلمة، وصارت من أمهات المؤمنين.

تذكِرة

للعباد مع البلايا أحوال منهم الراضي، والصابر، والمتسخط. أما الأول " الراضي " فهو يرى البلاء بعين الرحمة والحكمة الإلهية التي لا تخطئ، مُسَلِّم ومُستسلم لقضاء الله وقدره . أما الثاني " الصابر" هو من يجد في نفسه عدم الرضى عما قُدر من أحداث، لكن لسانه مستقيم على عدم التسخط أو الاعتراض، فهو صابر على ما أصابه لأن الأمر ليس بيده لكن داخله غير راضٍ عما وقع . أما الثالث " المتسخط " فهو الذي لم يكتفِ بالاعتراض الداخلي فحسب؛ بل تواطأ اللسان مع القلب فتجد منه أبشع ألفاظ التسخط على القدر وكأنه يُحاسب الله عما يفعل، بل ويتهم الله بأنه يُعاديه ويظلمه ويترك هذا وذاك، والأعجب من هذا أن تجده بعد فترة فتسأله عن حاله فيُدهشك ببراءته وقمة رضاه:

- الحمد لله، نحن أحسن من غيرنا، اللي يجيبه ربنا كله خير!!!

يارااااااااجل!

الخلاصة في كلمة سمعتها ذات مرة من الشيخ " محمود المصري" حفظه الله يقول:

- كن ذكيًا في التعامل مع البلاء، طالما أن المصيبة قد وقعت لا محالة، فهي في جُعبتك لا انفكاك، فالأولَى أن تأخذ المصيبة ومعها المثوبة – كما هو الحال في قصة السيدة أم سلمة – وإن كنا لا ندري أكانت راضية أم صابرة لكن يبقى أن كلاهما خير وإن كان الأفضل مرتبة الرضى بالتأكيد، أم تأخذ المصيبة ومعها السخط من الله وسترضى رغمًا عن أنفك شئت أم أبيت؟ ... والقرار لك .

عرفوه في الرخاء فعرفهم في الشدة

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

- انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا:

- إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم.

فقال رجل منهم:

- اللَّهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالاً (أي: لا أقدم في الشرب قبلهما أحداً)، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فجلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي (أي يصيحون من الجوع)، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللَّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

فقال الآخر:

- اللَّهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إليَّ .

وفي رواية:

- كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فأردتها على نفسها فامتنعت، حتى ألمت بها سنة من السنين (أي: أصابتها حاجة ومجاعة) فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى أذا قدرت عليها

وفي رواية:

- فلما قعدت بين رجليها قالت:

- اتق الله ولا تفضن الخاتم إلا بحقه.

فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليَّ وتركت الذهب الذي أعطيتها، ثم قال:

- اللَّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه.

فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج.

وقال الثالث:

- اللَّهم إني استأجرت أُجراء وأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد، ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال:

- يا عبدَ الله أدِّ إليّ أجري.

فقلت:

- كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال:

- يا عبدَ الله لا تستهزئ بي!

فقلت:

- لا أستهزئ بك.

فأخذه كله فاستقاه فلم يترك منه شيئاً، ثم قال:

- اللَّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .

فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»..

عبرة

لنتوقف قليلًا وقفةً تأملية أمام الرجل الثاني مع ابنة عمه، والرجل الثالث مع الأجير، فبالنظر إليهما أكاد أن أُجزم بأن أكثر الشهوات فتكًا بالإنسان شهوتي الجنس والمال، لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

" إن أكثر ما يُدخل الناس النار البطن والفرج " .

ولتتأمل معي - أيها القارئ – رجلًا اختلى بامرأة يريدها حتى وإن كانت تأباه لكن ما قد يُخرس به ضميره أنه بموافقتها، وقد تمكَّن منها فعليًا، وبلغت الشهوة منه مبلغها وذروتها فهو كالمُغيب، علاوة على ذلك أنه قد أُثيرت شهوته أكثر بكثير إذا جلس منها مجلس الرجل من امرأته فهو قاب قوسين أو أدنى من بلوغ نشوة يطوق لها، ثم يرى الله أن قلبه مازال حيًا فأفاقه بكلمة من الفتاة كأنها تصفعه:

- اتقِ الله ولا تفضنَّ الخاتم إلا بحقه .

لك أن تتخيل في زماننا لو أن فتاة اعوزتها الحاجة لمثل هذا الأمر – عافانا الله وإياكم – فبماذا سيكون الرد بالمقابل لكلماتها، اعتقد أنه سيكون على مثل هذا النحو:

" وانتِ فاكرة دلوقت تعمليلي فيها الخضرة الشريفة، وكان فين الشرف دا وانتِ بتبيعي نفسك وقبضتي التمن مقدم ...! "

لكن الشاب قام عنها، وترك لها المال وما تزال أحبّ الناس إليه، وقد توسل لله بصنيعه هذا حين سدت الصخرة باب الغار:

- اللَّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه.

وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل، وقد كان صادقًا في ذلك إذ انفرجت عنهم الصخرة قليلًا .

في مبدأ ترك الحرام ابتغاء وجه الله قول رائع وهو:

" من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه " .

وهذا يجرني للحديث عن أمر انفجر به المجتمع من شدة انتشاره وهو أمر " العادة السرية "، وقد سمعت بعض الشباب يصفها بأنها **" تصبيرة "** لحين توافر الحلال بالزواج، فهو قد فعل الحرام ليرضي

شهوته وبرَّر لنفسه كي لا يشعر بتأنيب الضمير، وتَرَكَ الحل الذي أخبرت عنه الشريعة على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم:

" يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء أي: وقاية " .

وقد ذكَّرني قول هذا الشاب بالشاب الذي جاء إلى النبي وقال له – ولا أدري كيف تجرأ وطلب هذا الأمر -:

" يا رسول الله ءإذن لي بالزنا! "

ويكأنه يقول:

- انا مش هقدر أغير طبعي ولكن غيّر انت الدين علشان يمشي معايا ومع شهوتي.

فتخيَّر النبي من الكلمات أنسبها لتؤثر في شاب ذو شهوة متأججة لتسكنها وتُعيدها في مسارها الصحيح المعتدل البعيد عن الحرام:

- أترضاه لأمك؟ أترضاه لأختك؟ أترضاه لابنتك؟ أترضاه، أترضاه، أترضاه ......

و النبي يُعدد لها، والشاب في كل مرة ينتفض وكأن كلام النبي يفيقه، ويقول:

- لا ... لا يارسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرضاه .

والنبي يقول له:

- وكذلك الناس لا يرضونه لأخواتهم ولا لأمهاتهم ولا... ولا... ولا....

كان من المتوقع أن يخاطبه النبي بقول الله في حرمة الزنا، والآيات المُنزلة في ذلك، لكنه عليه الصلاة والسلام بفراسته رأى أنه أمام شاب يعلم علم اليقين بحرمة هذا الأمر، وربما يحفظ الآيات الدالة على ذلك، ومن فرط شهوته يأتي بنفسه ومن دون خجل لرسول رب السموات والأرض، شارع الحلال والحرام ليستثنيه من هذا الحكم .... تخيل!

فاقتضت حكمة النبي أن يخاطبه بنخوة الرجولة العربية وقد كان ذا هو المدخل المناسب لمثل حالته .

انظر كيف أثرت كلماته الذكية صلى الله عليه وسلم فأنارت ما استظلم من قلبه كما أنارت كلمات الفتاة قلب ابن عمها، وولأزيدك من الشعر بيتًا اذكر لك موقفين تأثر أصحابهما بالكلمات الموجه لهما فأنارت قلبيهما فتحولت وتبدلت أحوالهما، **الموقف الأول: ل " بشر بن الحارث "**

فقد كان " بشر " من امراء البصرة، لكنه كان ماجنًا لاهيًا، فمرَّ بداره عالمٌ من علماء عصره فسمع صوت آلات الطرب والغناء، فاقترب من باب داره، وقرع الباب، فخرجت إليه خادمة " بِشر " فقال لها الرجل العالِم:

- صاحب هذه الدار حرٌ أم عبد؟

فقالت الخادمة:

- لا بل هو حر .

فقال العالِم:

- صدقتي، فلو كان عبدًا لَعَلِمَ أدب العبودية .

ثم انصرف إلى جهته، وعادت الخادمة إلى سيدها " بِشر " فقال لها:

- من بالباب؟

فقالت:

- رجل يسأل أحرٌ صاحب هذه الدار أم عبد، فقلتُ له بل حر، فقال لي: صدقتي، فلو كان عبدٌ لعلم أدب العبودية .

وهنا تغي " بِشر " وكأنه على موعد مع هذه الكلمة، فقام من مكانه وقال لها:

- أين الرجل؟

فقالت:

- ذهب إلى سبيله.

ثم أشارت له إلى الناحية التي توجه إليها، فأسرع إليه " بِشر " حافي القدمين، حاسر الرأس، حتى لحق به غير بعيد، فقال " بِشر ":

- أنت الذي قرعت باب داري؟

فقال العالِم:

- نعم .

قال " بِشر ":

- فماذا قلت للجارية؟

فقصَّ عليه العالِم ما دار بينهما من حديث، فبكى " بشر " وجثى على ركبتيه يقول وقد فهم مغزى الرسالة:

- بل هو عبد، بل هو عبد .

ومن حينه توجه " بشر " إلى خالقه ومعبوده، ورجع إلى داره، فكسر أدوات الطرب، وابتعد عن رفقة السوء التي كانت تلازمه، وأُطلق عليه لهذا الموقف " بِشر الحافي " لخروجه من الدار حافيًا مسرعًا يحاول أن يلحق بالعالِم .

فبكلمة انقلبت موازينه فأصبح من العبَّاد الزهَّاد .

الموقف الثاني: لـ " الفُضيل بن عياض "

يروى عن " الفُضيل " أنه كان لصًا سارقًا، قاطعًا للطريق، وذات ليلة تسلق جدار بيت ليسرقه، فسمع صاحب البيت قائمًا يصلي ويرتل قول الله تعالى:**" ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق"**

فتسمر في مكانه، وقد لامست الكلمات قلبه كأنها رسالة موجهة له يردد:

- آن يارب ... آن يارب .

فتحول من " الفضيل " السارق، قاطع الطريق إلى " الفضيل " عابد الحرمين .

إذًا قل الكلمة ولا تبالي بالتفكير في التأثير، فقد تؤثر في سامعها وأنت لا تدري، ولا تستبعد قوتها في القدرة على التغيير، فقد قالت امرأة لزوجها بأن " عمر بن الخطاب " قد أسلم، فقال لها مستنكرًا ذلك ومتعجبًا ومتستصعبًا حدوث هذا الأمر:

- والله لو أسلم حمار ابن الخطاب ما أسلم " عمر بن الخطاب "!

ولكن تأثر " عمر بن الخطاب " بالإسلام، وبما سمعه من آي القرآن – قوة الكلمة ولذة الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب – بل ومات رضي الله وعلى وجنتيه خطان أسودان محفوران من شدة البكاء من خشية الله جل جلاله .

أما بالحديث عن قصة الرجل الثالث مع الأجير فلا شك أن للمال زهوة وبريق، وقد ذكر الله أن من أُوتي كتابه بشماله يوم القيامة أول ما يتحسرون له مالهم الذي جمعوه من حِله وحرامه، واستتروا خلفه في عز وتمكين في الدنيا، لكنه لم ينفعهم أمام الله فيقولون كما في سورة " الحاقة ":

﴿ ما أغنى عني ماليه ۞ هلك عني سلطانيه ﴾

لكن بتفكير هذا العصر لو عاد الرجل لمن استأجره ليأخذ حقه الذي تركه من قبل لربما كانت ستسول له نفسه بان يعطي له أجره كما هو حسب اتفاقه معه أو ربما زاد عليه قليلًا – إلا من رحم ربي -، لكن أن يستثمر له هذا الأجر القليل حتى يصير واديًا من الأنعام، فيعطيه له كله دون تفكير أو تراجع ...... أي نفسٍ هذه!!

فكرة أن يجعل المرء المال في يده ليس في قلبه، أن يكون في نظره مجرد وسيلة لا غاية أعتقد بأنه أمر يصعب على كثيرٍ منا، لكن من علم أنه لن يأخذ من الرزق إلا ما قد قدره الله له مهما بلغ سعيه فسيرتاح ويُريح قلبه، فلا داعي للسعي خلف الحرام، فربما كان سيأتي بالحلال لولا استعجال العبد، فقد روى عن أمير المؤمنين " علي بن أبي طالب " أنه ذات يوم ذهب إلى المسجد، فقال لرجل كان واقفًا على باب المسجد:

- أمسك عليَّ بغلتي .

فأخذ الرجل لجامها بعد أن دخل " علي " المسجد، وترك البغلة ومضى، فخرج " علي " وفي يده درهمان ليكافئ الرجل بها على إمساكه بغلته، فوجد البغلة واقفة أمام المسجد بغير لجام ولم يجد الرجل، فركبها ومضى، ثم دفع لغلامٍ له درهمين ليشتري بهما لجامًا بدلًا من المسروق، فوجد الغلام نفس اللجام في السوق قد باعه السارق وعلم من البائع أن من باعه له أخذ فيه درهمين، فقال " علي " رضي الله عنه:

- إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد على ما قُدِّر له .

الخلاصة في قصتي الرجل مع ابنة عمه، والرجل مع الجير يلخصها قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديثين شريفين، الأول: قول النبي صلى الله عليه وسلم:

" إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضى الله لا يُلقي لها بالًا يهوى بها في الجنة سبعين خريفًا، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالًا يهوى بها في النار سبعين خريفًا "

والثاني قوله عليه الصلاة والسلام:

" إن روح القُدُس قد نفث في روعي أنه لن تموت نفس قبل أن تستكمل رزقها وأجلها، فأجملوا في الطلب - أي: اسلكوا السبل التي ترضي الله في طلب الرزق الحلال -، ولا يحملنكم استبطأ الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله؛ فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته "

وماذا عنها؟!

مرَّ موسى ذات يوم في طُرُق المدينة في وقت خلت فيه الطرقات من الناس ظهراً فوجد رجلين يقتتلان، أحدهما من بني إسرائيلي والآخر مصري. أراد المصري أن يسخِّر الإسرائيلي في عمل، فأبى عليه الإسرائيلي. ولما رأى الإسرائيلي موسى استغاث به، فجاء موسى فأخذ بجمع يده فوكز المصري وكزة، فلما رآه قتيلاً بين يديه ولم يكن يريد قتله، قال:

{**هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين** }.

وأصبح موسى في المدينة خائفاً يترقب، يمرّ في طرقاتها على حذر. وبينما هو في طريقه إذا الذي استنصره بالأمس " أي: الإسرائيلي " يستصرخه مرة ثانية، فأقبل عليه موسى وقال له:

- {إنك لَغَوي مبين} أي: صاحب فتن ورجل مخاصمات، ومع ذلك أخذته حماسة الانتصار للإسرائيلي، فأراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما، لكنّ الإسرائيلي ظن أنه يريد أن يبطش به فقال له:

- ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ .

فالتقط الناس كلمة الإسرائيلي وعرفوا منها أن موسى هو الذي قتل المصري بالأمس. وشاع الخبر ووصل إلى القصر الفرعوني. فتذاكر آل فرعون في أمر موسى والقصاص منه. وأتى موسى أحد الأشخاص وحذره من أَنَّ القوم يتأمرون عليه لقتله، وأخبره بأن عليه أن يهرب ويترك المدينة، وعندما سمع ذلك ارتعب وقرر الهرب لأن الخبر ذاع ووصل إلى فرعون. فغادر موسى البلد واتجه إلى جهة بلاد الشام تلقاء مدين. وسار بلا ماء ولا زاد، وكان يقتات بورق الأشجار، حتى وصل إلى مدين .

وصل موسى بعد رحلة طويلة إلى مدين، وأخذت موسى غيرة على فتاتين تنتظران الرجال حتى ينتهوا من ملء المياه، فقال لهما :

-ما خطبكما؟

فاعتذرتا عن عملهما في السقي دون الرجال من أسرتهما، فلا أحد من الرجال لديهن سوى الأب وهو شيخ كبير لا يقوى على القيام

بهذه المهمة. فنهض موسى ورفع الحجر الذي يُسد به فم البئر بمفرده بعد أن أعاده الرعاة إلى مكانة غير آبهين للمرأتين، وقيل أن هذا الحجر كان يرفعه تسعة من الرجال لثقله، لكن موسى رفعه بمفرده، وسقى أغنام الفتاتين. قال الله تعالى في ذلك:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

لم يحاول موسى انتهاز الفرصة لاستعراض قوته أمام المرأتين، أو أن يتجاذب الحديث معهن لحين انتهاء الغنم من السقاء، لكنه أنجز المهمة التي اقتضتها نخوته كرجل يأبى أن يرى نساءً في هذا الوضع دون أن يتدخل حفاظًا عليهن، وما كان ليُرجئ هذه المساعدة لوقت أخر؛ حيث إنه لتوِّه وصل مدين من سفر طويل شاق، ولو كان شخص آخر غير "موسى" عليه السلام لمنع نفسه من التدخل في أمورٍ لا تعنيه اتعاظًا مما حدث له جراء هذه التدخلات لمساعدة الغير، لكن فطرته الرجولية أبت الامتناع عن مد يد العون للجميع.

أو أن يجعل المساعدة لاحقًا ربما يراهن ثانية، فبطبيعة الحال لن تتوقف الغنم عن شرب الماء بعد هذه المرة، لكن " موسى " عليه السلام لم يترك الأمر للحظ في لقاء آخر.

تعجب أبو البنتين الشيخُ الكبير من عودتهما مبكرتين، فقصتا عليه قصة الرجل الغريب الذي سقى لهما، فأمر إحداهما أن تعود إليه، وتبلغه دعوة أبيها ليجزيه على عمله، لبى موسى الدعوة، وسار مع ابنة الشيخ، وقيل بأنه قد طلب منها أن تسير خلفه وتدله على الطريق، لئلا يقع بصره على حركات جسمها عِفَّةً منه. **قال تعالى:**

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

دخل موسى على الشيخ الكبير، فرحب به وقدم له القِرى "الضيافة"، ثم سأله عن خَطبِه، فقص عليه موسى القصص، ووصف له حاله وحال بني إسرائيل في مصر. **قال تعالى :**

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ .

أُعجب الشيخ برأي ابنته، لكن ربما رأى أن " موسى " عليه السلام يستحق أكثر من ذلك فعرض عليه الزواج من إحدى ابنتيه اللَّتين سقى لهما وشَرَطَ عليه أن يكون مهر ابنته أن يخدمه ثماني سنين، فإن زادها إلى عشر سنين فهي زيادة غير مفروضة. فوافق موسى على العقد مع الشيخ وتمت المصاهرة بينهما وقضى في خدمته أوفى الأجلين وهو عشر سنين.

لمحة

حين تُذكر قصة " موسى " مع فتاتي مدين دائمًا ما يقرنها العلماء بفضل الدعاء الذي دعا به موسى عليه السلام:

(فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِير)، فيحثون الشباب ممن يرغبون في الزواج ولكن قصرت أيدهم عن ذلك بأن يكثروا من هذا الدعاء؛ فإن " موسى " بعد أن دعا به أتته الزوجة، والمأوى، والوظيفة.

ولكن ... ماذا عن الفتاة التي قُدِّر لها أن تكون زوجة النبي موسى كليم الله، صاحب أشهر كتاب سماوي وهو التوراة، صاحب الذكر المُخلد في القرآن الكريم والذي ذُكرت قصته في أكثر من موضع مرارًا وتكرارًا، أحد أولي العزم من الرسل، صاحب الفضل على هذه الأمة بعد الله في تخفيف الصلوات عنها من خمسين صلاة إلى خمسٍ فقط؟ !

بماذا كانت تدعو حتى يهيئ الله لها الأسباب للقاء به والزواج منه؟!

انظر إلى تسلسل الأحداث بداية من أن يقتتل الرجلان الإسرائيلي والمصري، فيتدخل موسى لفض النزاع، وبالخطأ يُقتل الرجل، ثم تحدث مشادة أخرى بين نفس الإسرائيلي ورجل أخر فينكشف تورط موسى في قتل الرجل الأول، ويتناقل الخبر في أرجاء المدينة حتى يصل للقصر الفرعوني فيتأمرون لقتل موسى، ثم يُسخِّر الله له من يأتيه لينبهه بالأمر وينصحه بالخروج من المدينة.

انظر ... " لم ينصحه بالاختباء مثلا، بل بالخروج من المدينة كلها "، ويستجيب موسى لنصحه، وتأخذه خطواته نحو " مدين " بالتحديد لا لمكان أخر رغم أنه لا يعرف فيها أحدًا، وقد كان من الممكن أن يذهب إلى أي مكان أخر؛ فأرض الله واسعة، لكن الله أراد له أن يتجه نحو " مدين "، بل إن شئت فقل بأن الله ساقه إلى فتاة " مدين. "

وهنا يتراءى لي بعض التشابه بين خوف " موسى " وخوف " محمد " عليهما الصلاة والسلام، فإن " محمد " صلى الله عليه وسلم حين رأى " جبريل " في أول مرة على صورته الحقيقية في غار حراء ليبشره

بالنبوة خرج من الغار خائفًا إلى زوجه " خديجة " رضي الله عنها يقول :

-دثروني دثروني.

فما كان منها إلا أن هدأته حين قال لها:

_لقد خشيتُ على نفسي يا خديجة.

فقالت له تثبته وتطمئنه:

-كلا، والله لا يُخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَل، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق.

وكان من حكمة الله وتقديره أن هيأ لنبيه " محمد " صلى الله عليه وسلم البيئة التي تعينه على تبليغ رسالة النبوة وأول هذه البيئة زوجته التي هي مصدر السكن والطمأنينة لروحه وفؤاده، ويكأن الزوجة هي طاقته التي يُشحَن بها مساءً حتى إذا ما جاء الصباح وخرج إلى الناس واحتك بهم، ولقيَ منهم ما يلقى نفذت تلك الطاقة فيعود إليها ثانية ليستمد منها طاقته للمواصلة من جديد.

أما "موسى" فربما افتقد هذا الجانب في حياته، فلا أم ولا أخت ولا زوجة، فإن امه لا ندري عنها سوى ثلاث مشاهد، الأول حين خافت على وليدها " موسى " فأوحى لها الله بأن تلقيه في اليم، والثاني حين طلبت من ابنتها أن تتبع خبر أخيها بعد أن ألقته في اليم، والثالث حين أنجز الله وعده لها ورد ابنها إليها.

و اخته لا نعلم عنها سوى المشهد الذي ذكرناه آنفًا إلى جانب أنها تدخلت حين كانوا يبحثون لـ " موسى " عن مرضعة فدلتهم على أمها.

فلعل الله حين رأى خوف " موسى " بعد أن علِم من الرجل أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه، فنصحه بالخروج من المدينة كما قال الله تعالى: ﴿ **فخرج منها خائفًا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ۞ ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل**﴾

ورأى سبحانه استوحاش قلب عبده لوحدته دون هذا الجانب اللين في حياته، وفقدانه السكن لروحه وفؤاده ولا أحد يطمئنه ويؤنسه دبر له الأمر ليجمع بينه وبين فتاة مدين ويكأن علاج خوفه وطمأنته بالزوجة والسكن إليها وتهيئة له قبل أن يُبغث نبيًا، فبعد أن صارت له زوجة بعثه نبيًا في بني اسرائيل...

سبحانه ﴿ **ألا يعلمُ من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ .

ورد موسى ماء مدين بتقدير الله، وكان من الممكن أن تخط أولى خطواته أي مكان أخر فيها، فبالطبع" مدين " بلدة كبيرة، لكنه سبحانه " يُدبر الأمر. "

ثم يريد الشيخ أن يشكر لموسى صنيعه، وربما كان من الممكن أن يكتفي بدعوة له بظهر الغيب، لكنه أرسل له إحدى ابنتيه لتأتيه به، ثم تعرض عليه ابنته أن يستأجره لقوته وأمانته ولا ندري عما كان في قلبها حينها، وهل فهم الأب الشيخ الكبير أو استنتج ميلها له فعرض عليه أن يتزوج إحداهما تلبية لرغبة ابنته التي حتمًا يمنعها الحياء من أن تفصح عما في داخلها، وكما قال الرافعي:

"وإن من طبع المرأة أنها إذا أحبت امتنعت أن تكون البادئة. "

وقد قال القرآن عنها واصفًا فقط مشيتها:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

هل حدث كل ذلك عبثًا؟!

كلا! بل هو تقدير العزيز الحكيم.

نحن لا نعلم بماذا كانت تدعو هذه الفتاة، وربما ما كانت تدعو بشيء محدد لكن الله كافئها على حيائها وعفتها حتى حين تخالط الرجال، فقد كانت واختها تبعدان أغنامهما خشية أن تختلط بأغنام الرعاة فتحتكا بهم.

والشيء بالشيء يُذكر سأعطيك مثالًا أخر للإمام " أحمد بن حنبل " في تقدير الله وتدبيره لأمور العباد، فقد روي عن الإمام أحمد أنه سافر إلى قرية مجاورة لطلب العلم، وقد كان غريبًا عنها لا يعرف فيها أحدًا، ورغم أنه قد ذاع صيته لكن شكله وهيئته لا يعرفها إلا أهل بلدته بحكم سكنه بينهم.

ولما وصل إليها دخل المسجد لأداء صلاة العشاء، ثم جمع أدواته حوله ونام في المسجد لأن لا أحد يعرفه، وليس هناك فرصة لاستئجار مكان كما هو الحال في زماننا.

وبعد أن مضى أكثر من نصف الليل جاء حارس المسجد وأيقظه بغلظة وأخرجه من المسجد، وقد أخبره الإمام أحمد بأنه غريب عن البلدة ليس لديه من يعرفه كي يستضيفه لكنه أبى، فخرج الإمام أحمد وجلس أمام المسجد، فخرج الحارس خلفه ليبعده من أمام

المسجد، لكن الإمام أحمد أبى أن يقوم من مكانه، لأن الحارس شأنه بالمسجد فقط، فوقف الحارس أمام الإمام أحمد ثم جره من أقدامه لوسط الطريق!

كل هذا والحارس لا يدري بأنه يفعل هذا مع الإمام الكبير أحمد بن حنبل.

رأى هذا المشهد رجل خبّاز يمتلك مخبزًا أمام المسجد، كان يحضر العجين ليخبزه ويبعه بعد الفجر مباشرة، فأشار إلى الإمام أحمد بأن يأتي إلى مخبزه، وأفسح له مكانًا لينام فيه.

استلقى الإمام أحمد لكنه ظل مستيقظًا، وقد لاحظ أن الخباز لا يكف لسانه مطلقًا عن ذكر الله، فجلس الإمام أحمد وقال له:

-منذ متى وأنت على هذه الحال من ذكرك لله؟

فقال الخباز:

-منذ زمن بعيد حتى أصبح بالنسبة لي كالماء والهواء.

فقال الإمام أحمد:

-وماذا وجدت من بركة ذكرك لله؟

فقال الخباز:

-أني ما دعوت الله بدعوة قط إلا استجاب لي.

فتعجب الإمام أحمد وقال:

-سبحان الله! ما دعوتَ الله بدعوة قط إلا استجاب لك؟!

قال الخباز:

-نعم ... ما دعوت الله بدعوة قط إلا استجاب لي إلا دعوة واحدة.

فتسائل الإمام أحمد:

-وما هي؟

قال الخباز:

-أن أرى الإمام أحمد بن حنبل!

فانتفض الإمام أحمد وقد غمرته الدهشة يشير إلى السماء بسبابته ويقول:

-ها هو الله قد أتى إليك بأحمد بن حنبل يُجر من أقدامه !

سبحان الله!

الخلاصة في قصة موسى وزواجه من فتاة مدين أننا لسنا في زمان الرجل الصالح الذي رأى في موسي زوجًا كفءً لإحدى ابنتيه فعرض عليه الزواج بإحداهن، فإن النفوس قد تغيرت في زماننا، والطبائع البشرية خالطها اللؤم، ولو أن أبًا أو أخًا عرض على أحدهم الزواج ممن تخصه أمرها لفُهم أنه يُدلل عليها ظنًا منه أن لا أحد يطرق بابها، وقد فعلت إحداهن ذلك مع زوجها فقد كانت هي البادئة ولمحت له بأنها ترغب في أن يكون زوجًا لها وبالفعل تم الأمر، لكن كلما تشاجرا أو اختلفا ذكَّرها بأن هي من كانت تسعى له، يقول باللفظ:

-(إنتِ ناسية إن انتِ اللي جيتي لحد عندي)!

وبحكم أنني امرأة فأنا سأخبركم أمرًا وهو أن الرجل مهما كان وضعه الاجتماعي ومكانته بين الناس إلا أنه يستطيع ولو كان ذو حالٍ متدنٍ أن يتقدم لمن يشاء من النساء والفتيات، حتى وإن رفضته الفتاة أو رفض أهلها، لكن يبقى أنه صاحب الخطوة الأولى، أما الفتاة فمهما يكن من شأنها فإن حيائها سيمنعها، ولو كان الشخص أمامها وتتعامل معه يوميًا إلا أنها لن تستطيع أن تبوح له بما في قلبها

تجاهه، فهي في هذا الأمر بالتحديد " قليلة الحيلة "، ولكن أريد أن أُبشِّر كل فتاة بحديث قدسي رائع يأخذ القلب يقول فيه النبي عن الرب العلي:

"وعزتي وجلالي لأرزقن من لا حيلة له حتى يتعجب أصحاب الحِيل. "

وختامًا في قصة موسى وفتاة مدين أتبنى قولًا لأحدهم:

"ولو أراد الله جمع قلبين لهيأ أسباب اللُقيا ولو كانت المسافات أرضٌ وسماء. "

لأنك ما أذنتَ لي بالأكل منه!

كان المبارك بن واضح (والد الإمام عبدالله بن المبارك) يعمل أجيرًا في بستان، فجاء صاحب البستان يومًا، وقال له:

-أريد رمانًا حلوًا .

فمضى إلى بعض الشجر، وأحضر منها رمانًا، فكسره فوجده حامضًا، فغضب عليه، وقال:

-أطلب الحلو فتحضر لي الحامض؟ هات حلوًا.

فمضى، وقطع من شجرة أخرى، فلما كسرها وجده أيضًا حامضًا، فاشتد غضبه عليه، وفعل ذلك مرة ثالثة، فذاقه، فوجده أيضًا حامضًا، فقال له بعد ذلك :

-أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟

ففال:

-لا.

فقال:

-وكيف ذلك؟

فقال :

-لأني ما أكلتُ منه شيئًا حتى أعرفه.

فقال: ولِمَ لَمْ تأكل؟

قال :

-لأنك ما أذنتَ لي بالأكل منه.

فعجب من ذلك صاحبُ البستان، وسأل عن ذلك فوجده حقًّا، فعظُم " المبارك " في عينيه، وزاد قدره عنده، وكانت له بنت خُطبت كثيرًا، فقال له:

-يا مبارك، مَن ترى تزوَّج هذه البنت؟

فقال :

-أهل الجاهلية كانوا يزوجون للحسب، واليهود للمال، والنصارى للجمال، وهذه الأمة للدِّين.

فأعجبه عقله، وذهب فأخبر به أمها، وقال لها:

-ما أرى لهذه البنت زوجًا غير" مبارك "، فتزوجها، فأنجب منها الإمام الفقيه " عبدالله بن المبارك. "

عبرة

كشف تقرير الزواج والطلاق الصادر عن الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء في إبريل ٢٠٢٤م، أن عدد حالات الطلاق في مصر خلال العام الماضي بلغت ٢٦٩,٨ ألف حالة.

وذكر التقرير في دراسة له الأتي:

١- عدد حالات الطلاق سنويا ٢٦٩,٨ ألف حالة طلاق .

٢- عدد حالات الطلاق شهريا ٢٢,٥ ألف حالة طلاق .

٣- عدد حالات الطلاق أسبوعيا ٥,٢ ألف حالة طلاق .

٤- عدد حالات الطلاق يوميا ٧٢٩ حالة طلاق .

٥-عدد حالات الطلاق خلال ساعة ٢١ حالة طلاق .

٦- عدد حالات الطلاق.. حالة كل دقيقتين.

لذا قال رجل للحسن:

- من أُزّوج ابنتي؟

قال:

ممن يتقى الله فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لن يظلمها -.

أما " مبارك " فكان خير مثال لقول الله تعالى:

{ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب } .

فاللهم زوِّج نساء المسلمين للأتقياء الأنقياء .

وبلغ المُنى ببيع الحمار

حدثت تفاصيل هذه القصة في بلاد الأندلس إبان حكم الدولة الأموية وهي من روائع القصص التاريخية.

يحكى أن ثلاثة من الشبّان كانوا يعملون حَمَّارين، ينقلون بضائع الناس من السوق إلى بيوتهم على حميرهم، ومن بين هؤلاء الثلاثة شاب اسمه " محمداً " قدِم من اليمن لتعلم الفقه في قرطبة. وفي ليلة من الليالي وبعد يوم عمل شاق، جلس الشبان الثلاثة يتناولون عشاءهم ثم تسامروا وضحكوا وروَّحوا عن أنفسهم، فقال محمد :

-تخيلوا أنني أصبحت خليفة على المسلمين في كل بلاد الأندلس، ماذا تتمنيان؟

فقالا:

-يا محمد! ما هذا الخيال؟ أنت تحلم، وحلمك بعيد بُعد السماء عن الأرض.

فقال لهم محمد:

-تخلوا فقط أنني أصبحت خليفة للمسلمين، ماذا يمكنكما أن تطلبا مني؟

فقال أحدهم :

-هذا حلم اليقظة لا يمكن تحقيقه، ولا يمكن تصديقه حتى في المنام.

وقال الآخر:

-يا محمد أنت وُلِدْت لتكون حمّاراً ولا شيئ غير الحمّار، أما الخليفة فذاك شأن أخر، نم وكفاك حلماً .

قال محمد :

- قلت لكما افترضا أنني أصبحت خليفة، أعرف أن هذه الأمنية ثقيلة على عقلكما الصغير ولكن تخيلا ذلك .

غَرِقَ محمدٌ في خياله وأحلامه التي جعلته يشعر بأنه سيجلس على عرش الخلافة طال الزمان أم قصر، كل هذا وهو ينتظر أمنية صديقيه اللذان اشتغلا عنه بالحديث مع بعضهما.

فكرر السؤال مرة أخرى واتجه نحو أحدهما:

- ماذا تتمنى أيها الرجل؟

فرد عليه الشاب الطموح: أريد حدائق غنّاء، وأريد إسطبلاً من الخيل.

واسترسل محمد والأمنية تغمره يُحفز صاحبه:

-وماذا أيضاً، أطلب تعطى؟

فقال الشاب:

-أريد مائة جارية يامولاي، وإذا تفضل مولاي، أريد مائة ألف دينار ذهباً .

قال محمد:

-وماذا أيضاً؟

فرد عليه صاحبه:

-يكفيني هذا يا أمير المؤمنين!

جرى هذا الحوار في جو من المرح ومتعة الخيال، فقد غاص محمد بن أبي عامر في بحر خياله اللامحدود وهو يرى نفسه على عرش الخلافة، مفتخراً بعطاءاته الكبيرة التي يُقدمها بسخاء الكرماء.

ويشعر بمشاعر السعادة وهو يعطي بعد أن كان يأخذ، وينفق بعدما كان يطلب، ويأمر بعدما كان يُنفذ، وفجأة وجد نفسه ما زال حمّاراً فقيراً، يعيش في بيئةٍ يَسِمُها البؤس والشقاء. التفت محمد إلى صاحبه الآخر وقال له:

- وأنت أيها الرجل ماذا تريد؟

فرد عليه الأخر بازدراء وتهكم :

-يا محمد إنما أنت حمّار، والحَّمار لا يصلح أن يكون خليفة.

ثم قال:

-إنّ وقوع السماء على الأرض أيسر من وصولك إلى الخلافة!

فقال محمد:

-دعني من هذا كله، ماذا تتمنى أيها الرجل؟

قال الشاب المتشائم:

-اسمع يا محمد، إذا أصبحت خليفةً، فاجعلني على حمار، ووجه وجهي إلى الوراء، ثم أمر منادياً يسير بي في أزقة المدينة وينادي :

"أيها الناس! أيها الناس! هذا دجال محتال، من يمشي معه أو يحدثه أودعته السجن " .

وانتهى الحوار ونام الجميع ..

ومع آذان الفجر استيقظ محمد ليصلى صلاة الصبح، ثم جلس بعدها يُفكر فيما كان يفكر فيه قبل النوم:

- من يعمل حمَّارًا كيف يصل إلى الخلافة؟

الجواب على هذا السؤال سيكلفه الكثير من الجهد والتفكير، فكر محمدٌ طويلاً حتى أعياه التفكير، وبعدها قرر أن يقوم بالخطوة الأولى ليصل إلى هدفه، حتى توصل إلى قناعة لا رجعة فيها، وأحس بنشوه تغمره وهو يحدد الخطوة الأولى وهي بيع الحمار والبحث عن طريق يوصله إلى السلطة. وبالفعل باع الحمار، وانطلق بكل ثقة وإصرار وجِدٍّ يبحث عن الطريق الموصل إلى الهدف. فقرر أن يلتحق بدرج الشرطة .

أخذ محمد بن أبي عامر يجتهد بكل تفان وإخلاص في عمله الجديد، تمامًا كما كان يفعل وهو حمَّارًا

نال محمد إعجاب رؤسائه وزملائه بجده ونشاطته وكذا كفاءته، كما حظي باحترام الناس، فأخذ يترقى في عمله حتى أصبح رئيساً لقسم الشرطة في الدولة الأموية في الأندلس.

وبعد أن مات الخليفة الأموي تولى ابنه " هشام المؤيد بالله " الخلافة بعده، وكان عمره آنذاك عشر سنوات. وبما أن الطفل في هذا السن لا يمكنه إدارة شؤون الدولة فقد أجمع حكماء الدولة وسياسيها أن يجعلوا عليه وصياً حتى يكبر ويصبح راشداً صالحاً لأخذ زمام الخلافة. ولكنهم خافوا أن يجعلوا عليه وصياً من بني أمية فيأخذ منه الملك، فقرروا أن يختاروا واحداً من بين مجموعة من الأوصياء المرشحين من غير بني أُمَيَّة. فوقع الاختيار على محمد بن أبي عامر، وابن أبي غالب، والمصحفي، فأصبح محمد بن أبي عامر مقرباً إلى أم الخليفة واستطاع أن يمتلك ثقتها ووشى بالمصحفي عندها، فأُزيل المصحفي من الوصاية وزوج محمد ابنه بابنة ابن أبي غالب ثم أصبح بعد ذلك هو الوصي الوحيد، فاتخذ مجموعة من القرارات، ومن بين قراراته أن لا يخرج الخليفة إلا بإذنه. ثم نقل شئون الحكم إلى قصره . وجيش الجيوش وفتح

الأمصار واتسعت دولة بني أمية في عهده وحقق من الانتصارات ما لم يحققه خلفاء بني أمية من قبل في الأندلس، حتى اعتبر بعض المؤرخين أن تلك الفترة، كانت فترة انقطاع في الدولة الأموية، وسميت بالدولة العامرية . وهكذا تمكن الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر من أن يحقق أهدافه بشتى الطرق المتاحة له.

وفي يوم من الأيام، وبعد ثلاثين سنة من بيع الحمار، كان الحاجب المنصور يعتلي عرش الخلافة وحوله الفقهاء والأمراء

والعلماء، تذكر صاحبيه الحمَّارين، فأرسل أحد الجند إليهما وقال له:

- اذهب إلى مكان كذا فإذا وجدت رجلين صفتهما كذا وكذا فآتيني بهما على الفور

ووصل الجندي فوجد الرجلين بنفس الصفة وفي نفس المكان.

فقال لهما:

- إن أمير المؤمنين يطلبكما للوقوف عنده الآن

اندهش الرجلان وقالا :

-أمير المؤمنين يطلبنا! إننا لم نذنب ولم نفعل شيئاً .. ماجرمنا؟

قال الجندي:

-لا أدري ولكنه أمرني أن آتي بكما.

وعندما وصل الرجلان إلى القصر، أدخلهما الجندي إلى قاعة العرش فنظرا إلى الخليفة، فإذا به محمد الحمّار، صديقهما الذي كان يحلم ذات ليلة بمقام الخليفة قالا باستغراب وهما لا يكادان يصدقان عيناهما:

- إنه صاحبنا محمد ... والله إنه هو!

قال الحاجب المنصور :

-أعرفتماني؟

قالا:

-نعم يا أمير المؤمنين، ولكن نخشى أن لا تعرفنا .

قال الخليفة:

-بل عرفتكما، ثم نظر إلى الحاشية وقال:

كنت أنا وهاذين الرجلين نعيش سوياً قبل ثلاثين سنة، وكنا نعمل حَّمارين، وفي ليلة من الليالي جلسنا نتسامر، فقلت لهما إذا كنت خليفة فماذا تتمنيان؟ فقال كل واحد منهما أمنيته .

ثم التفتَ إلى أحدهما، وقال:

-ماذا تمنيت يا فلان؟

قال الرجل الطموح: حدائق غنّاء.

فقال الخليفة: لك حديقة كذا وكذا، وماذا أيضاً؟

قال الرجل: إسطبلاً من الخيل، قال الخليفة :

- لك ذلك، وماذا أيضاً؟

قال :

-مائة جارية، فرد الخليفة:

-لك مائة من الجواري، ثم ماذا أيضاً؟

قال الرجل :

-مائة ألف دينار ذهباً.

قال الخليفة :

-هو لك، وماذا أيضاً؟

قال الرجل :

-هذا يكفيني يا أمير المؤمنين .

قال الحاجب المنصور:

-ولك منا راتباً مقطوعاً وأن تدخل عليّ بغير استئذان.

ثم التفت إلى الآخر وقال له:

-ماذا تمنيت؟

قال الرجل :

-اعفني يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة:

-لا والله حتى تخبرهم!

فقال الرجل: الصحبة يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة :

-حتى تخبرهم!

فقال الرجل:

-قلت إن أصبحت خليفة فاجعلني على حمارٍ واجعل وجهي إلى الوراء وأمر منادياً ينادي في الناس

«أيها الناس.. هذا دجال محتال.. من يمشي معه أو يحدثه أودعته السجن»

قال الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر:

-افعلوا به ما تمنى حتى يعلم أن الله على كل شيئ قدير.

فكرة

في سؤال طرحته جريدة " البلاد البحرينية " حول نوعية العمل الذي يفضله الشباب، وقد تم نشر هذا التقرير في يوليو ٢٠١٩ م حول السؤال التالي:

ماذا يفضل الشباب البحريني؟ العمل الحر وأرباحه الكثيرة إن كان ناجحا، أو الوظيفة الثابتة مع تأمين مدى الحياة؟

فجاءت الإجابة من العينة التي طُرح عليها هذا السؤال من الشباب بأن العمل الحر أقل أمانا للشباب من الوظيفة، ولكن أرباحه أكثر؛ لذلك فإن ٧٧ % من الشباب يفضلون الوظيفة الثابتة .

وفي تقرير نشره موقع " سيدتي " في فبراير ٢٠٢٣م حول الإجابة عن سؤال:

لماذا يفضل البعض الوظيفة عن العمل الحر وريادة الأعمال؟

جاء في صحيفة Chron الأميركية، أن البعض يفضّلون الوظيفة عن العمل الحر كون الأولى أقل إرهاقًا؛ إذ يكون الفرد قادرًا على التركيز للغاية في شيء معين وليس بحاجة إلى التفكير في آلية عمل الأقسام والأفراد الآخرين.

ويقول المدرب والمستشار في الموارد البشرية " محمد باروم" العمل الحر وريادة الأعمال يتطلبان التفكير الدائم والإبداع وخلق معطيات جديدة ... انتهى كلامه.

قد يكون في صدرك شيء – أيها القارئ – على " محمد بن أبي عامر" إذ أنه قد سلك بعض الطرق غير الشرعية من الوشاية التي أحدثها عند أم الخليفة ليطهر الطريق كي يصل إلى هدفٍ نبيل وهو الخلافة، لكن ليس هذا هو الهدف من تعليقي على قصته، وإنما لنضع أنفسنا أمام بعض الأمور المهمة من خلال ربط التقارير السابقة بقصة " محمد ":

أولًا: أن " الحمار " – أعزكم الله – وإن كان ملكًا لمحمد إلا أنه ربما ورث هذه الوظيفة عن آباءه وأجداده، فهي بالنسبة له وفي كل الأحوال حتى وإن لم تكن بالوراثة وظيفة ثابتة لديه لا غنى للناس

عنها في زمان كان الناس في حاجة لنقل حاجاتهم على مثل هذه الدواب حسب طبيعة عصرهم .

ثانيًا: أن وظيفة " الحمّار " – مع كامل احترامي لهم - قد تكون أقل إرهاقًا بكثير مما لو كان حمالًا ينقل للناس حاجاتهم على ظهره، فلو شعر " الحمّار " أو دابته بالتعب والإرهاق عاد ليستريح ويخرج بعد ذلك وقتما يشاء .

ثالثًا: أن وظيفة الحمّار ثابتة لا جديد فيها، فهو كعادته في أي وقت يخرج ليحمل متاع الناس " مِن وإلى " وانتهى الأمر، لا مجال فيها للإبداع كغيرها من بعض المهن الأخرى .

لذلك فإن طموحًا كبيرًا كطموح " محمد بن أبي عامر " لن يتأتى إذا بقي حمّارًا، فإن بَقِيَ الحمار لظل " محمد " يركن إليه، فكان حل العقدة في بيع الحمار .

فببيع الحمار أصبح الخليفة، وبذلك ركض " محمد " وراء حلمه ولم يخش المجازفة .

فمغزى الأمر:

" أنَّ كل منا لديه عقدة قد تمنعه من الوصول لهدفه، فمتى وضعتَ يدك على عقدتك واستطعتَ حلها بلغت مرادك، وكلٌ منا أدرى بعقدته " .

صدق اللّه وكذب الشاعر

كان من أحد قواد الحجاج بن يوسف الثقفي قائد يُدعى "ابن الأشعث "، حدث بينهما خلاف فتمرد " ابن الأشعث " ومن معه على الحجاج ودارت بينهما حروب . يقول الهيثم بن عدي، جاء رجل إلى الحجاج فقال:

- إن أخي خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمي في الديوان ومُنعت العطاء وقد هُدمت داري .

فقال الحجاج:

- أما سمعت قول الشاعر:

حنانك من تجنى عليك وقد　　تعدى الصحاح مبارك الجرب

ولرُبَّ مأخوذ بذنب قريبه　　ونجا المقارف صاحب الذنب

فقال الرجل:

- أيها الأمير إني قد سمعت الله يقول غير هذا، وقول الله أصدق من هذا .

فقال الحجاج:

- وما قال؟!

قال الرجل:

- يقول الله على لسان إخوة يوسف:

﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أبًا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذًا لظالمون ﴾.

فنادى الحجاج لأحد عماله وقال:

- يا هذا أعد اسمه في الديوان، وابنوا له داره، واعطه عطاءه، ومُر مناديِ ينادي " أن صدق الله وكذب الشاعر " .

فائدة

معرفة طبيعة الشخصيات التي تحتم علينا الأوضاع فيها التعامل معهم يسهل علينا الطريقة والمدخل المناسب في التعامل سواء كان مديرًا، أو رئيسًا في جهة ما، أو حتى الأبوين في البيت، وحيث إن الحُكَّام في السابق كانوا إلى حد ما كثيري الاختلاط بالرعية، فكان الأمر يجعل المرء الذكي يبحث في مفاتيح شخصية حاكمه لربما يقصده في طلب أو يلتمس منه عذر أو يعرض عليه مظلمة ليساعده، وكان من صفات الحجاج رغم بطشه وجبروته أنه كان يُجل القرآن، وإذا ما قورن قول بشري بقول الله توقف عند قول الله ولا يعارضه، فلم يكن ليرفض شريعة الله أو تحدي نصوصها ولو كان الحجاج ابن يوسف.

لأطعمتك إياه

كان للإمام الشافعي تلميذًا يُدعى " الربيع بن سليمان "، لكنه كان بطيء الفهم، فكان الشافعي يضطر أحيانًا إلى إعادة المسألة عليه عدة مرات ليفهم. وذات مرة كان " الربيع " يجلس بين تلاميذ الإمام يستمع إلى شرح مسألة منه في الفقه لكنه لم يفهمها، فأعاد الشافعي عليه المسألة فلم يفهمها، وكرر الشافعي المسألة فلم يفهمها الربيع حتى أعادها عليه أربعين مرة ولم يفهم، ثم قام الربيع يجرجر أذيال الخجل لأنه لم يفهم المسألة بعد أربعين مرة من الشرح، وبعد إن انفض الجمع ارسل الشافعي للربيع على خلوة، وظل يُعيد عليه المسألة حتى فهمها .

شعر الربيع بالخجل من شيخه الشافعي لأنه جشَّمه عناء إعادة المسألة مراتٍ كثيرة، فقال له الشافعي:

-يا ربيع لو قدرتُ أن أُطعمك العلم لأطعمتُك إياه !!

وقفة

ربما تتفق معي أيها القارئ ونحن ندقق النظر في موقف الإمام الشافعي مع تلميذه الربيع أن نظرة الإمام قديمًا هي تلك النظرة التي يتبناها الغرب في زماننا، لذلك تجد أن العملاقة هناك من أبنائنا وإخواننا قد وُسِموا بالفشل هنا، إذًا فما الفرق بين هنا وهناك إذ أن إمكانات ذوينا هنا في نفسها التي غادروا بها إلى هناك؟

الفارق هو الدعم المعنوي بأنه يستطيع، ثم يأتي الدعم المادي تباعًا، وثقته بهم بأنهم لن يتركوه، وثقتهم به بأنه لن يخذلهم.

وعلى المستوى العام فأنت أيها القارئ قد تكون معلمًا في مدرسة أو شارحًا لأولادك في المنزل أو صاحب عملٍ فيبتليك الله بطالبٍ أو ولدٍ أو عامل بطيء الفهم، فاصبر عليه، فإنك لا تدري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا فيكون لهذا الشخص شأنٌ عظيم، فإن " الربيع

بن سليمان " صار فيما بعد راويةً لكتب الإمام الشافعي، وكانت مئات الرواحل تُناخ أمام بيته؛ ليقرأ أصحابها عليه كتب الشافعي.

أما عمن هم تحت أيدينا ممن تقل قدراتهم فما هم سوى نبتةٌ صغيرة قد يقتلعُها أحدنا بيده فلا يعود لها شأنٌ يُذكر فيما بعد، وقد يصبر عليها أخر فيحُوطها بالعناية والرعاية فتغدو ذات شأن عظيم يُشار إليها بالبنان .

ألقيتها في البحر!

روي عن الإمام البخاري أنه ركب البحر لطلب العلم، وبينما هو في السفينة جلس إليه أحد ركابها يتبادل معه حديث الطريق ولا أحد يدري أنه البخاري، فهو وإن كان ذاع صيته بين الناس إلا أنهم لا يعرفون ملامحه، فليس الحال كما هو الآن من توافر وسائل البث الحي المباشر والقنوات الفضائية، أما العلماء القدامى فلا أحد يعرفوهم سوى من يعاشرونهم من ابناء قريتهم أو مدينتهم أو ما شابه.

وفي طيات حديثه عرف الرجل أن البخاري غريب عن المكان الذي سيذهب إليه، ولا يعرف فيه أحدًا، لكن البخاري وبحُسن نية قال للرجل أثناء كلامه معه بأنه يمتلك ألف دينار تعينه في سفره، فهو غريب بين الناس الذين سيذهب إلى بلدتهم حتى وإن كان ذو شأن كبير بين العلماء لكنهم لا يدرون عنه.

وعندما حل المساء، وساد الظلام، وأخذ كل راكب من ركاب السفينة مضجعه مزق هذا السكون صوت أحدهم يصرخ بأعلى صوته:

_ أغيثوني لقد سُرقت نقودي!

فزع ركاب السفينة، وقاموا إليه يهرعون ويتساءلون، فقال لهم:

- لقد سُرقت مني صرة بها ألف دينار!

حدقت العيون، وفُتحت الأفواه مستعظمين هذا المبلغ الكبير. نظر البخاري فإذا هو نفس الرجل الذي كان جليسه في الصباح، فعلم أنه يحتال ليأخذ منه نقوده وكأنها حقه، فماذا يفعل!

بدأ القائمون على أمر السفينة بتفتيش ركابها، ومتاعهم، وكل شبر فيها، وعلى حين غفلة منهم ودون أن يشعر أحد من ركابها ألقى البخاري بصرة الدنانير في البحر!

كان الرجل يترقب خروج صرة الدنانير من متاع البخاري، لكن التفتيش لم يُثلج صدره، وبعد أن تعب الجميع من البحث والتدقيق وقد وجدوا أن هيئة الرجل ومظهره لا تدل على أنه من أصحاب هذه المبالغ الكبيرة من المال، كذا فإن تعبيرات وجهه لا

تُنبئ عن حُرقته على فقد هذا المبلغ، لكن وعلى أية حال قاموا بما يقع على عاتقهم وليس بيدهم شيء، ثم تركوه وعاد الجميع إلى أماكنهم مرة أخرى .

ومع بزوغ النهار قام الرجل ينظر حوله فرأى البخاري مستيقظًا يجلس في مكانه، فقام إليه ثم جلس إلى جواره ومال نحوه هامسًا:

- أين صرة الدنانير؟!

أجاب البخاري بهدوووووء جم:

- ألقيتها في البحر!

كاد الرجل أن يصرخ وقد جُن جنونه:

- صرة من الدنانير بها ألف دينار تُلقيها في البحر؟!

فقال البخاري:

- نعم ... والله ما كان ليُقال عن البخاري بأنه سارق .

تذكِرة

دقـاتُ قلب المرء قائلـةٌ لـه　　إنَّ الحياة دقـائقٌ وثوانـــي
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها　　فالذكرُ للإنسان عمرٌ ثاني

هكذا نبهنا أمير الشعراء " أحمد شوقي " إلى العمر الأخطر في رحلة الإنسان الأبدية وهو " عمر الخلود "، والذي يتمثل في ذكرى المرء بعد مماته، ولن يتأتى هذا الذكر الرفيع إلا لمن أحسن عمله، وقضى عمره الذي لا يساوي مهما بلغ شيئًا مقارنة بما يمكثه المرء في باطن الأرض فيما يحب أن يُذكر به بعد موته .

وقد أدرك هذه الحقيقة الإمام البخاري، إذ كيف يكون حاملًا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُلطخ جبينه بهذه اللطخة السوداء التي سيبقى أثرها مقرونًا باسمه كلما ذُكر إلى يوم القيامة حتى ولو كان صاحب حقٍ، لكن الحيلة التي احتالها صاحبه لينال نقوده بغير حق كادت أن تحوله من " الإمام البخاري "

صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل إلى "البخاري السارق"، لكنه لم يفكر حينها إلا في سمعته، فاختار أن يضحي بهذا المبلغ النفيس وهو في حكم المغترب مقابل أن يحافظ على تلك السمعة الطيبة من الدنس والتي سترافقه كلما ذُكر اسمه بعد مماته.

لا يستحق

سئل شيخ كبير تجاوز عمره الثمانين عن ملخص هذه الحياة فقال:

- هذه الحياة تتلخص في أمرين:

الأول " ألا تغضب إلا لأمرٍ عظيم " .

الثاني " أن كل أمور الدنيا حقيرة " .

ثم ابتسم ...

تخيل

ذُكر عن أحد رواد الفضاء وكان ملحدًا أنه انطلق إلى الفضاء الخارجي في أولى رحلاته الفضائية، فلما ابتعدت مركبة الفضاء عن الأرض وبدأت تصغر في عينيه شيئًا فشيئًا حتى أصبحت في حجم حبة الفول، قال في نفسه مستحقرًا إياها:

- تلك التي عليها ومن أجلها كل هذه الصراعات والاقتتال!

تلك التي تُزهق الأرواح فيها من أجل اللا شيء!

ثم ...

ماذا لو أن اسرة تقتتل فيما بينها من أجل ميراثٍ يتمثل في شقة في حي نائي، وقد يطمع فيها أحدهم ويستأثر بها لنفسه ويأبى أن يعطي بقية إخوته حقهم فيها، فتنشأ بينهم العداوة وقد يصل الأمر إلى المحاكم ناهيك عن القطيعة والمخاصمة!

هب أنها عمارة كاملة ماذا سيكون الحال؟!

هب أنها عدة عمارات سكنية يأتي من خلالها ريـع شهري؟!

ماذا لو كانت عمارات شارع بأكمله عن اليمين والشمال ملكٌ لهم!

كل هذا على تلك الحبة " حبة الفول "!

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:

" إن الدنيا بأسرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء "

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى من الدنيا شيء يعجبه يقول:

- " اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة " .

لأنه يعلم يقينًا أن متاع الدنيا منغص، حتمًا إلى زوال .

لذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن أخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة أن مُلكه فيها سيكون مثل الدنيا وعشر أمثالها وهذا أخر رجل يدخل الجنة، فماذا عمن سبقوه بالدخول، وماذا عن أول زُمرة تُفتح لهم أبواب الجنة وتخُط أقدامها أرضها!

نسأل الله من فضله ... قولوا آمين .

فلا عجب إن قال الشيخ الكبير أن كل ما في هذه الدنيا حقير ولا شيء فيها يستحق الغضب، فقد أخبرت السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يغضب لنفسه ولا لشيء قط إلا أن تنتهك حرمات الله .

ولما أتى رجل يقول للنبي صلى الله عليه وسلم:

- أوصني .

قال له النبي صلى الله عليه وسلم:

- لا تغضب .

فأعاد الرجل الطلب، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم نفس الرد ثلاث مرات .

فإن فاتك شيء من أمور الدنيا فما فات شيء، وإن فاتك شيء من أمر الأخرة فقد فاتك خير عظيم .

المحتويات

مقدمة ٥
سحر الكلمة ٩
انظر مع من تتكلم ١١
وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم ١٥
ويحك كيف هذا!! ٢١
الأمـــان ٢٤
كيف حال العُقدة؟! ٣١
ألم يكفيك فضلنا؟! ٣٤
يأتيني بها الله ٤١
يأباه القلب ويُذعن به اللسان ٥٠
عرفوه في الرخاء فعرفهم في الشدة ٥٤
وماذا عنها؟! ٦٨

لأنك ما أذنتَ لي بالأكل منه! ٨٣
وبلغ المُنى ببيع الحمار ٨٨
صدق الله وكذب الشاعر ١٠٣
لأطعمتُك إياه ١٠٦
ألقيتها في البحر! ١٠٩
لا يستحق ١١٤